الفصل الخامس

الألوهيــــة
Divinty

لا شك في أن التقدم الكبير في الدراسات الأنثروبولوجية الميدانية في الحقبات الأخيرة من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كتلك التي قام بها «هوايت» *A.Howitt* لسكان أستراليا، و«سيلجمان» *C. G. Seligman* لسكان ميلانيزيا و«فرانز بواس» *Franz Boas* للأسكيمو... وغيرهم كثيرون قد كشفت عن أن فكرة الألوهية وجدت لدى جميع الشعوب الوثنية التقليدية، وفي هذا الصدد يقول «إيفانز بريتشارد» *Evans-Pritchard*: إن الوصول إلى فكرة الألوهية يعتبر بمثابة استنتاج عقلاني لدى الإنسان، أي أن العالم قد صنعه كائن أعلى *superior being*.

أصل فكرة الآلهة

يبين الأستاذ «فراس السواح» في كتابه (دين الإنسان) كيف نشأ مفهوم الكائن الأعلى انطلاقاً من معتقدات أسبق منه تتعلق بتقديس الأسلاف والقوة السارية في الطبيعة. ويقدم مثالاً مأخوذاً عن الثقافة الأسترالية التي تعد أكثر كل الثقافات المعروفة لنا بساطة وركوداً. يقول: «لقد رأينا سابقاً كيف يقوم المعتقد الأسترالي على المبدأ الطوطمي، الذي يعادل مفهوم المانا لدى شعوب ميلانيزيا. وسوف نوضح فيما يلي كيف توصلت الثقافة الأسترالية لدى بعض قبائلها إلى فكرة الكائن الأعلى. علماً بأن هذه الحالات النادرة التي استطاع الباحثون التأكد من وضوح مفهوم الكائن الأعلى فيها، هي الحالات التي عوَّل عليها شميت دون

obeikandl.com

غيرها في بحثه عن التوحيد الأصلي في أستراليا، واعتبرها بمثابة الأمثلة الدافعة على أولوية الألوهة المشخصة ممثلة بالإله الأكبر.

يميِّز الأستراليون بين «النفس» ***soul*** و«الروح» ***spirit***، فالنفس هي ذلك الشبح الأثيري المحبوس في جسد الكائن الحي، وهي على الرغم من إمكاناتها المحدودة على الحركة من وإلى الجسد، ضمن شروط معينة وفي أوقات معينة، فإنها لا تستطيع التخلص من إساره تماماً إلا بموت الجسد. أما الروح، فعلى الرغم من أنها قد جبلت من المادة الأثيرية التي للنفس، إلا أنها أكثر قوة وحرية، وهي على الرغم من ارتباطها أحياناً بموضوع مادي تحل فيها، كصخرة أو شجرة أو كوكب...إلخ، إلا أنها حرة في التنقل خارجه والعودة إليه متى شاءت، وذلك على عكس النفس التي لا تملك فعالية تذكر خارج حدود الجسد الذي ترتبط به. ولكن النفس بعد الموت، تكتسب بعض خصائص الروح فتغدو أكثر حرية وأقدر على الحركة. فبعد انتهاء طقوس الدفن والحداد، تمكث النفس بين أهلها وأصدقائها فترة من الوقت ثم تغادرهم إلى عالم الأموات، وبعد ذلك غالباً ما تتردد إلى مساكن أهلها لتتجول في الدغل قرب البيوت، فتقدم العون أو تسبب الأذى، وذلك تبعاً لنوع المعاملة التي تتلقاها من الأحياء. ومع ذلك فإن أشباح الموتى هذه، تبقى أقرب إلى المتشرد الذي لا يملك وظيفة أو عملاً محدداً، لأن الموت قد وضعها خارج كل الأشكال والصيغ النظامية. أما الروح، فإنها تملك على الدوام قوة من نوع ما، ومجال فعل يتجدد بظاهرة ما من ظواهر الطبيعة أو المجتمع الإنساني، أي أن لها وظيفة محددة في النظام الكوني»[1].

«يستثنى من هذا التقسيم نفوس معينة تتمتع بخصائص النفس والروح معاً، فهي من جهة أشباح موتى عاشوا على الأرض منذ قديم الزمان، ومن جهة ثانية هي أرواح ذات قوة كبيرة ومجال فعل وتأثير واضح وواسع، إنها نفوس الأسلاف الأسطوريين الذين وضعهم خيال القوم عند بداية الزمن، والذين تمتعوا إبان حياتهم بقوة لم تتيسر لغيرهم من الأحياء أو الأموات بعد ذلك. هؤلاء الأسلاف لم يولدوا من جيل سابق عليهم، بل انبثقوا إلى الوجود مع انبثاق مظاهر الطبيعة ذاتها، ثم أنجزوا

---

[1] فراس السواح: دين الإنسان (بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني)، دار علاء الدين، ط 4، دمشق 2004، ص 224-225.

كل الأعمال الجليلة الضرورية لاستمرار البشرية من بعدهم، وعندما انتهت مهمتهم غادروا الحياة الدنيا وولجوا إلى باطن الأرض، ولكن نفوسهم بقيت بمثابة أرواح خالدة ترعى سلالتهم من بعدهم. وقد تحولت النقاط التي عبر منها الأسلاف نحو باطن الأرض، على بقاع مقدسة، فهنا تودع العشيرة أدواتها الطقسية وهنا تقام الطقوس الدينية الرئيسية.

ويعزو الأسترالي إلى أسلافه الأسطوريين قوى فوق طبيعانية خارقة، فهم الذين أعطوا من البدء للأرض شكلها الحالي، وهم المسؤولون عن ظهور الكائنات الحية عليها. ويبلغ من قدراتهم أنهم يتحركون فوق الأرض أو تحتها بلمح البصر، يخترقون الجبال والحواجز الطبيعية كما الشعاع في الماء، وقد يغمرون البلاد بطوفانات عظيمة، أو يفجرون الينابيع فتملأ بحيرات لا حصر لها... ولعل من أهم المعتقدات المتعلقة بهؤلاء، هي مسؤوليتهم عن إخصاب النساء وتكوين الأجنة في الأرحام. فالفعل الجنسي ليس السبب المباشر في حمل المرأة، بل هو مجرد وسيط يسمح لأحد الأسلاف بأن ينفخ في الرحم من روحه، ويحل فيه بجزء منه فيما يشبه التقمص. وبذلك يزدوج السلف في كل مرة وإلى ما لا نهاية، من غير أن يفقد من كيانه الأصلي شيئاً، لأن ما يحل منه في الرحم عند كل تقمص لا يعدو أن يكون قبساً ضئيلاً أو نفخة طفيفة. وبهذا يغدو كل فرد في العشيرة مرتبطاً بشكل وثيق بأحد الأسلاف الأسطوريين، فهو ممثله وصورة عنه في جماعته. ونظراً لمسؤوليته المباشرة عن إنجاب الطفل، فإن السلف المعني يتابع اهتمامه به منذ ولادته وحتى مماته، فإذا اشتد عوده يمضي معه إلى الصيد فيدفع الطرائد إليه، وهو يحذره في أحلامه من المخاطر الممكنة، ويحميه أنى تحرك من أعدائه.

إلى جانب العلاقة التي تربط بين أرواح الأسلاف وأفراد العشيرة، هناك علاقة من نوع آخر تربط أرواح الأسلاف إلى مظاهر الطبيعة. فروح السلف تقيم معظم وقتها في الهيئة الطبيعية التي دلف منها ذلك السلف إلى باطن الأرض في غابر الأزمان، وتغدو هذه الهيئة بمثابة الجسد المرئي له، وموضع تقديس عظيم، كما تغدو روح السلف، بالمقابل، بمثابة روح للهيئة الطبيعية ذاتها. فإذا ما ارتبطت الهيئة بظاهرة من ظواهر حياة الطبيعة، كأن يرتبط نبع ما، مقدس، بتهاطل المطر، فإن روح السلف

الحالة في هذا النبع تعتبر بمثابة روح للمطر ومسؤولة عنه أو موكلة به. وبذلك تلعب بعض الأرواح دوراً جديداً ومهماً على مستوى الطبيعة. لقد دعا بعض الباحثين هذه الزمرة من الأرواح التي ارتقت إلى وظائف كونية بالآلهة. إلا أن تعبير الآلهة هنا غير دقيق تماماً، لأننا لا نزال في الواقع أمام مفهوم أرواح ارتقت إلى منزلة أرقى، وصار لها مجال فعل أوسع، غير أن هذا المفهوم الجديد إنما يضعنا في الواقع على الدرجات الأولى نحو التشخيص التدريجي للقوة الإلهية، مما سوف نتابعه فيما يلي:

على الرغم من الاختلاف في الطقوس الدينية المتبعة ضمن العشائر المكونة للقبيلة الواحدة، فإن هذه الطقوس تؤلّف فيما بينها ديناً مشتركاً بين الجميع، وتتأكد الوحدة من خلال تشابهات أساسية تبدو واضحة تحت مظهر التنوع. وبشكل خاص فإن طقوس التعدية (التكريس) تظهر تشابهاً لدى جميع العشائر، كما أن إجراءها لا يتم على مستوى العشيرة، بل على مستوى القبيلة وبحضور جميع العشائر، حيث يتم من خلالها تقديم البالغين من الذكور على دين القبيلة وتعريفهم بأسراره. وقد قاد هذا التشابه في طقوس التعدية، وغيرها من الطقوس المشتركة بين العشائر، أو حتى بين مجموعة قبائل في بعض الأحيان، إلى الاعتقاد بالأصل الواحد لهذا الطقس المشترك، وبأنه يرجع إلى سلف بعينه، قام بتأسيسه وتعليمه للقبيلة كلها. فلدى جماعات الأرونتا، يسود الاعتقاد بأن سلف عشيرة القط البري هو الذي أوجد الأدوات الطقسية المعروفة بالتشورينغا، وأباح استعمالها طقسياً لجميع العشائر. ولدى جماعات الديرين يسود الاعتقاد بأن سلف عشيرة التمساح هو الذي أرسى أسس طقوس الختان وعلمها لجميع العشائر. هذا النوع من الأسلاف لا يوضع على قدم المساواة مع البقية، فإضافة إلى مسؤولية هؤلاء عن بعض الطقوس المشتركة ومراقبتهم لأدائها، فإن الخيال الديني يعزو إليهم كل ما هو أساسي في حياة الجماعة، مثل الابتكارات التكنولوجية والمؤسسات الاجتماعية. وقد توصلت عشائر الكايتيش إلى النظر إلى السلف المدعو أنانتو، على أنه من صنع نفسه بنفسه في السماء وابتكر الاسم الذي يحمله، وأن نجوم السماء هي بناته وزوجاته، كما يعتبر اسمه بمثابة تابو لا يجوز التلفظ به أمام من لم يمر بطقوس التعدية ويستلم أسرار دينه.

على أن هذا النوع من الشخصيات الميثولوجية ليس الدرجة الأخيرة في سلم تشخيص القوة الإلهية في أستراليا، فلقد تم التوصل أحياناً إلى مفهوم مشترك عن شخصية مبجلة، لا بين العشائر المؤلّفة لقبيلة واحدة، بل بين عدد من القبائل. وهذه الشخصية هي التي وصفها أصحاب نظرية التوحيد الأصلي، لأنها تشبه بالفعل ما يعرفونه عن الإله الأعلى. غير أن تتبع سيرة حياة هذا الكائن الأعلى في الثقافة الأسترالية، يظهر بوضوح أصله كسلف ارتقى سلم الألوهة تدريجياً. فعلى ندرة وجود هذا النوع من السلف - الإله في الديانة الأسترالية التي تدور حول المبدأ الطوطمي وأرواح الأسلاف، فإنه يتمتع بخصائص متشابهة وسيرة حياة واحدة. فهو كائن عاش على الأرض ردحاً من الزمن، ثم غادرها إلى السماء مع عائلته المؤلّفة من عدد من الزوجات والأبناء والبنات، ومن هناك راح يدبر حركة الأفلاك ويرسل المطر ويصنع البرق والصاعقة، وقد أشعل الشمس لكي تدفئ الأرض وتخرج الكائنات الحية من تربتها وكذلك الزرع والشجر، ثم قام بتعليم البشر كل ما من شأنه إعانتهم على الحياة، وهو يتواصل معهم إما مباشرة أو عن طريق وسطاء. وبما أن طقوس التعدية هي الأكثر أهمية بين الطقوس، فإن هذا الكائن الأعلى هو المعني بها، فخلال الاحتفال تنقش على قطعة من الخشب هيئة ترمز إلى صورته، فيرقص المحتفلون ويغنون ويبتهلون، ثم يكشفون للبالغين الذين يتلقون أسرار دينهم في هذا الاحتفال عن الاسم السري له، ويقصون عليهم سيرة حياته وعجائب فعاله، وهم في الإشارة إليه غالباً ما يرفعون أيديهم ويوجهون حرابهم نحو السماء حيث يقيم. وبما أن طقوس التعدية هذه، هي العبادة الوحيدة التي تدور حول هذا الكائن الأعلى، فإنهم يعتقدون بأنه يوليها كل العناية ويحرص على أدائها بحذافيرها كل الحرص.

إلى هنا ينتهي بنا المطاف في البحث عن أصل الآلهة المشخصة، وقد ختمناه بمثال عن أكثر الثقافات البدائية بساطة، أجبنا من خلالها على نظرية التوحيد البدائي، وأظهرنا في الوقت نفسه كيفية تكون صور الآلهة من مفهوم الروح، ومن مؤسسة عبادة الأسلاف. فصورة الإله المشخص لم تكن أبداً بدهية من بدهيات العقل الإنساني، بل تكونت من أفكار دينية أسبق منها، ومعتقدات تدور حول الألوهة غير المشخصة، حول القوى الغفلة التي تكمن عند جذور الدين»[1].

---

[1] المرجع السابق، ص 226-229.

الألوهيـة في إفريقيــا

يذهب «فرنسيس دنج» *F. Deng* في معرض حديثه عن الألوهية عند الدنكا، أن الدنكاوي ينظر إلى الجنس البشري كما لو كان خاضعاً لقوة واحدة عليا لديها القدرة على الخلق والتدمير، وطالما كان البشر مختلفين فإن آلهتهم مختلفة، ومن ثم كان لكل جماعة سواء أكانت عشيرة أو قبيلة آلهتها الخاصة التي يعبّر عنها الدنكاوي حين يقول: «يا إله أبي» أو «يا إله أسلافي»، إنه يلجأ إليها لاستعادة التجانس الذي كان قائماً وخاصة حين يقاسي الإنسان من سوء الحظ أو المرض أو الوفاة. ويعتقدون أن آثار الآلهة واضحة في الكون تتمثل في كل ما لا يستطيع الإنسان تبريره أو إدراكه وفي الحقائق غير المعروفة لديهم فالرعد والبرق والمطر جميعها مرتبطة بالآلهة، الرعد يتمثل فيه صوت إلهة الغضب، والبرق يشير إلى الهراوة المتوهجة والتي تمسك بها لتقوض شرور العالم وخطاياه. إنجاب الأطفال هدية من الآلهة والنساء اللاتي لا ينجبن ربما أسأن إلى أنفسهن أو أساء إليهن آخرون، ربما تُغيِّر الآلهة موقفها إذا ما قدمت القرابين والضحايا المناسبة، ولا يختلف عن هذا جيرانهم من سكان جبل كارلنجا حين يقولون تعبيراً عن القدرة الإلهية إن «موسلا» *Musala*[*] قضى على الأبقار والأغنام والدجاج وسلبها الحياة لأنه يحتاج إليها ويقولون إنه يقتل الناس بالتدريج يقضي على الكبار أو بعضهم، ثم يسمح للآخرين بالإنجاب، ثم يقضي على جماعة أخرى ويأتي بنسل جديد وهكذا... إنه مضطر لأن يفعل هذا حتى يجد الأحياء كفايتهم من الطعام والشراب[1].

أما سكان جبل «كورنجو» *Korongo* (من جبال النوبا أيضاً) يستخدمون كلمة «موسلا» للإشارة إلى الكائن الأعلى الذي يسمو على البشر ويتمتع بقوى هائلة لا يمكن أن تقارن بها قوة الإنسان.

أما جيرانهم سكان جبال «الأنقسنا» *Ingassana* فيرون أن موت المرأة الحامل يعني أن الإله (تل) قد اتصل بها جنسياً، وأن من أصابه مرض عضال فقد رأى الإله أثناء تجواله بين السماء والأرض. ويقول أحدهم إننا نحاول استرضاء الإله

(*) يسمون أحياناً *Mussala Maadamba* أو الذي في السماء أو إله السماء، وأحياناً يشيرون إلى القدرة الإلهية بقولهم *Mussala Maani* أي إله أبي أو الإله العظيم.

(1) د. فاروق مصطفى إسماعيل: أنثوغرافيا كارلنجا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1982، ص3.

(تل) بتقديم «المانج تل» أي القرابين وإلا جعل حياتنا صعبة فقد نمرض أو نموت وقد تلحق بنا أحداث سيئة (ضعف المحصول - هلاك الماشية - عدم سقوط الأمطار- العقم... إلخ). إننا لا نصلي ولا نتحدث إلى «تل» مباشرة، إننا نناشد الجد الأكبر «سيار» أن يحقق الوساطة بيننا وبين الإله «تل». وهكذا نجد أن ***Musala*** و ***Tell*** وغيرها من الأسماء إنما تطلق على الإله الأعظم أو القوة المطلقة، ولا يختلف هذا عما نجده لدى غيرهم من الشعوب والجماعات فلدى أقزام ***Tiri*** التي درسها الأب شميت في بداية القرن العشرين يسمون آلهتهم أو كائنهم الأعلى ***Mangu***، ولدى بعض قبائل «البانتو» ***Bantu*** يسمون الكائن الأعلى «مولونجو» ***Mulungo*** وإذا سمعوا الرعد قالوا إن مولونجو يتحدث. ويسرد لنا هوبير ديشان أسماء الآلهة أو الكائن الأعظم لدى العديد من الشعوب الإفريقية في كتاب (الديانات في إفريقيا السوداء). إن قبائل «الدوجون» ***Dogon*** يسمونه ***Amma***، و«البامبارا» ***Bambara*** يدعونه ***Fara***، والأشانتي ***Ashanti*** يطلقون عليه ***Mana***، و«اليوروبا» ***Yoruba*** يسمونه ***Oloroun***، أما ***Ibo*** نيجيريا فيشيرون إليه بكلمة ***Choukou*** وهكذا.

وقد أثبتت الدراسات الحقلية أن الأسماء التي تطلق على الآلهة قد يطلقونها على كائنات أو مسميات أخرى كما هو الحال لدى قبائل الأنقسنا ***Ingassana***، حيث إن «تل» هو الإله أصل الكون وخالقه، وقد يطلقون نفس الاسم على الشمس وأحياناً يسمونها «تل الصغير» ولا يقتصر هذا على جبال الأنقسنا ففي جبال النوبا شمالاً يطلقون على الإله ***Abraide***، والكلمة نفسها يطلقونها على الوسيط الروحي، أو الشخص الذي تقمصته بالأول القوة الكبرى التي جسدت العالم، والأخرى القوة الصغرى التي تجسدت في الكجور أو القوة التي حلت في الإنسان الذي اختارته القوة الكبرى وعاءً لها. إلا أن وصفها منذ البداية كان متقارباً إلى حدّ بعيد، وأن أمهم الأولى كانت تجلس على الأرض وحين حاولت الوقوف على قدميها اصطدم رأسها بالسماء فتناولت العجوز عصا وضربت بها السماء، ومن ثم أخذت السماء في العلو إلى أن استقرت في مكانها الحالي. وتختلف الأساطير حول قصة الانفصال هذه إلا أنها جميعاً تدور حول دور العجوز في عملية الانفصال هذه وأن «تل» سرعان ما أيقظ الإنسان والحيوان والأرض ومنحها جميعاً قوة الإنتاج والتناسل.

أما سكان كارلنجا (التلشيون) فإنهم يعتقدون أن موسلا بمثابة القوة

الروحية والكائن الأعظم كما أسلفنا، خالق الشمس والقمر والسماء والأرض والجبال، يرسل إليهم البرق والرعد والرياح والمطر، ويعاقبهم بالقحط والجاف لإهمال عادات الآباء والأجداد. ولا يمكن رؤيته وليس له مكان محدد أو مكان يؤدي إليه (على عكس جيرانهم من سكان جبال الأنقسنا) وإن كان جيرانهم في كورنجو يرون أن ميدا مابيجي «طور المية»، هو الذي خلق موسلا القوة العظمى أو الإله الأعظم، وأنه دائم التجوال في الأرض والسماء ليوزع الأرزاق للناس ويخلق الأجيال.

يمكن رؤيته في شكل ثعبان الماء «ني» وقد يظهر في صورة بقرة أو ثور أو في صورة كلب وقد يمتطي صهوة جواد وعلى الرغم من أنه الإله الأعظم إلا أنه في أحوال كثيرة لا يأتي بالخير إلا إذا تضرع الناس له وقدموا القرابين ويسمونها «مانج تل» مناشدين جدهم الأكبر «سيار» أن يحقق الوساطة بينهم وبين «تل» كما في حالة عدم سقوط المطر أو العقم أو ضعف المحصول أو هلاك الماشية أو الأبقار، ومن صفاته الخلود فهو لا يموت[1].

ويرى البعض أنه يظهر في صورة إنسان، وإن كانوا لم يروه، وقد يبدو في صورة أخرى، ومع ذلك فإن «تل» لن يدمر الكون والحياة سوف تستمر هكذا، طالما أراد «تل» وهو الذي بسط الأرض وخلق الجبال، وأنه في عملية الخلق هذه ينتقل من مكان إلى آخر حتى تبقّى جبل أخير حمله على ظهره وعندما تعب وضعه في «سودا» وقال: «تاوساي» أي (أنا تعبت). ومنذ ذلك الحين سمي هكذا إلا أنه سمي حديثاً جبل «ليفر»، والرواية نفسها ينسبها سكان ياو لجبل «يوفق» وقد خلق «تل» السماء والأرض حيث يوجد بيت آخر للآلهة في سودا إلى أن يصل إلى جبل «كامول». هنا يخبر الزعيم الديني الثلاثة الآخرين «الحارس واثنين من جماعة السين»، حيث ينحر الثور على الفور ويتناول الزعماء الدينيون الأربعة منه ويوزعون ما تبقى على ذويهم دون غيرهم، وليس ثمة توقيت محدد لهذه الشعيرة. ومما تجدر الإشارة إليه أنهم يدفعون بقطعة من لحم هذا الثور إلى الـ«وي تل» من خلال فتحة صغيرة، ويعتقد البعض أن الآلهة تأتي لتناولها وإن كان البعض الآخر يرى أن هناك احتمالاً أن تأتي

---

[1] د. فاروق إسماعيل: تأثير الإسلام على الوثنية، ص 54- 56.

بعض القطط لتأكل مثل هذه الأشياء، وبصفة عامة فإنهم يحرصون على أن يكتنف الغموض الـ «وي تل». ويعتقدون أيضاً أن «تل» هذا هو مصدر الخير والشر، كما أنه يشارك البشر صفاتهم فهو يأكل ويشرب المريسة التي يقدمها له الشيطان «نقند»، ويتحد باتصاله الجنسي بالبشر، ويعتقدون أنه إذا اتصل بامرأة قد تموت وهي حبلى وليس لها أولاد، من يراه يصاب بمرض عضال، حيث تقدم القرابين كأن ينحر ثور أسود اللون لأجله. كما أنه ينام ويستيقظ شأنه في ذلك شأن البشر، ونومه يعني غياب الشمس، وظهورها يعني يقظته ليعاود نشاطه من جديد، ولا يعرفون أين يوجد، وإن كانوا يعتقدون أنه يقضي معظم الوقت متنقلاً بين السماء والأرض خاصة الجبال المقدسة، وقد يأوي إلى مسكنه. وإليه يعزون الخلق والموت والدمار. ولقد أثبتت الدراسات الميدانية في جبال الأنقسنا بوجود اعتقاد واضح في أن «تل» هو بمثابة الكائن الأعلى أو الأعظم وأصل الكون وخالقه، يرسل البرق والرعد والرياح والمطر والقمر والشمس، موجود في السماء وفي الجبال، خاصة جبلي بونق وليفر، وقدرته على الحركة بلا حدود، كما أنه خلق الجبال المقدسة وغير المقدسة.

والجدير بالذكر أن لهذا الإله مسكن في جبل كامول المتاخم لوادي ياو يسمونه الـ «وي تل»[*] يتبادر إلى ذهنهم أن الإله يتردد على هذا المسكن من حين لآخر، أو هكذا يتصورون في أحلامهم. ولا يؤذن لأحد أن يقترب منه سوى زعيمهم الديني أو السين «ودجماكدوره» وهو الرئيس الأعلى لمجموعة السين وزعيم المناسبات الدينية. وفي حالة الحاجة إلى ترميم الـ «وي تل» يسمح لأربعة من زعمائهم الدينيين بالدخول إليه وإصلاحه، وتتكرر هذه العملية على فترات متباعدة نحو خمس سنوات مثلاً، أو كلما تقادم عليه العهد وساءت حالته، ويسمح للأهالي بالحضور إلى مسكن الإله مرة كل عام في أعياد «ساي بوينج»، حيث يلتف الرجال حول الـ«وي تل» عدة مرات قبل أن ينصرفوا إلى تدريباتهم ورقصاتهم ولتناول شراب المريسة في منطقة أخرى غير جبل كامول. والجدير بالذكر أنهم لا يشعلون النار داخله أو حوله على غرار ما يفعلون في بيت الأسلاف، ولا يقصده الناس لقضاء حوائجهم، ويزعمون أن ثوراً مقدساً لا يلبث أن يظهر فجأة ليلاً أو نهاراً في وقت

---

[*] أشبه بمسكن صغير مخروطي الشكل مصنوع من القش وفروع الشجر.

ما أمام مسكن الإله «وي تل» ولا يعرفون من أين يأتي إلا أنهم يقولون إنه يمر بالمنطقة.

وتختلف فكرة الإله أو تصور هذه الشعوب للإله أو الإله الأعلى وإن كانت جميعها تخلع عليه من الخصائص والصفات ما يجعله يتميز عن البشر كما سوف نرى. فالبعض يرى أن الشمس هي بمثابة الإله الأعلى كما رأينا في جبال الأنقسنا وكما هو الحال عند شعوب أخرى، حيث يعتقدون أن الشمس هي الكائن الأعلى.

في حين تذهب مجتمعات أخرى إلى أن السماء هي بمثابة الإله أو الكائن الأعظم، كما هو الحال لدى سكان جبل فيجي الإله «تونجو» *Tongo*، وقبائل بارونجا إحدى فروع قبائل «البانتو» *Bantu* في إفريقيا ويسمونه *Tilo* أي السماء.

في حين تذهب شعوب أخرى إلى اعتبار مؤسس القبيلة بمثابة الجد الأول أو الروح العظمى أو الكائن الأعلى، كما هو الحال عند قبائل *Makalang* من البوشمن ويسمونه «كاآنج» *Kaang* أي (السيد) وقبائل «سيوكس» *Siowx* حيث آلهتهم «واكان» *Waken* (الروح العظمى) وهكذا.

وأياً ما كان الأمر فإن هذه الشعوب تخلع على الآلهة من الصفات والخصائص التي لا حصر لها. وإن كنا سوف نقتصر هنا على الصفات والخصائص السائدة لدى قبائل الأنقسنا شرق السودان، وجيرانهم جنوبي كردفان.

وإن ما يراه الكجرة فقط من أمثال كاسوللي وتشيللو يشارك البشر صفاتهم، يأكل ويشرب وينام ويستيقظ ويتحد باتصاله الجنسي، وأن له زوجة وأولاداً أولئك الذين يظهرون في السماء على صورة قوس قزح.

ولهم تصورات خاصة فيما يتعلق بالزلازل والبراكين والسيول المدمّرة والرعد والبرق - يختبئون على الفور في مساكنهم لمجرد رؤيتهم لهذا الأخير أو لسماعهم صوت الرعد، على الرغم من إدراكهم أن الرعد والبرق يمكن أن يكونا نذيراً بمقدم الخريف وسقوط الأمطار. ويفسرون غياب الشمس «إندانيا» بأنها تموت في الصعيد وتسقط في الماء، ثم تتحول إلى حيوان «شاة مثلاً» يسير في الأحراش والغابات إلى أن يعود إلى سيرته الأولى فيتحول إلى شمس تشرق من جديد. ويمكن القول إن المادة الأثنوغرافية المتاحة عن تلك الشعوب الوثنية وثيقة الصلة بالألوهية وتدعم المعطيات التالية:

أولاً- اعتقاد الشعوب الوثنية في إله أسمى أو خالق متعال، كلي القدرة، منعزل عن البشر، يكتنفه الغموض إلى حد كبير.

ثانياً- قد يغلب عليها طابع التعدد كما نجد لدى «الدنكا» ***Dinka*** الإله الأسمى، والآلهة العشائرية. وكما نجد عند «اليوروبا» ***Yoruba***، حيث الإله الأعظم أولودومار خالق كل شيء، وآلهة أخرى أقل مرتبة لها معابدها وكهنتها وأعيادها واحتفالاتها. وكما نجد لدى قبائل الأنقسنا حيث الإله «تل» أصل الكون ومصدر الحياة ...إلخ.

ثالثاً- يعتقدون أن هذه الآلهة دائمة الحركة، وجودها وحضورها دائم، وأن رؤية الآلهة واردة في إدراكهم، وإن كان البعض يقصر هذه الرؤية على الزعماء الروحيين أو الوسطاء ممن لهم حق الامتياز الشعائري.

رابعاً- على الرغم من الإيمان المطلق بفكرة الألوهية «الوحدانية أو التعدد» فإنهم لا يهملون الآلهة العشائرية أو القبلية أو الزعماء الروحيين، ويدركون أنها أقل قدرة ولكنها أكثر تأثيراً وفاعلية لأنها أكثر قرباً من الآلهة، ومن ثم فإن قنوات الاتصال بالآلهة أو الكائن الأعلى على حد زعمهم قد تكون عن طريق الطوطم أو زعيم روحي أو تعويذة أو أي شيء.

خامساً- إن ثمة ارتباطاً بين الآلهة وقوى الطبيعة الخفية غير المدركة.

سادساً- إن البناء الكهنوتي وما يحويه من شعائر وطقوس وثيقة الصلة بالسحر والممارسات السحرية والشعوذة والأرواح يُسخَّر بطريقة أو أخرى لخدمة الآلهة بقصد تحقيق التجانس بين الإنسان والإله، واستبعاد التنافر الكوزمولوجي، أو التغييرات في الظروف البيئية كالقحط والجفاف والوباء فضلاً عن المرض والموت والحظ العاثر، هنا يأتي دور القربان للسيطرة على قوى الطبيعة الخفية[1].

---

[1] د. فاروق إسماعيل: تأثير الإسلام على الوثنية، ص 60-61.

obeikandi.com